

الفصل السادس

المعجزة الحضارية



طور للعرب متحضر جديد

كان العرب - في الجاهلية - يعيشون في طور البداوة قبائل متعددة ، حتى في مدنهم التجارية مثل مكة والزراعية مثل المدينة ومدن اليمن والحيرة ، ووراء المدن كان يعيش العرب في تهامة ونجد وبادى الشام والعراق وجنوب الجزيرة على الأغنام والأنعام ، وكانت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ، وكانوا يتنافسون داخل الجزيرة على آبار الماء والمراعى ، فاستحالت حياتهم حربية ، واتخذت قبائلهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم . وكانت معارفهم محدودة ، فهي معارف أولية ساذجة ، وكانت أنسابهم أهم معارفهم ، وكانت القبيلة تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم قوامها ، والعبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة ، والموالى وهم عتقاؤها ، وكانوا ينفون عنهم من تكثر جنایاتهم ، ومنهم طائفة الصعاليك التي تعيش للنهب وقطع الطرق . وكانوا يتمدحون ويفتخرون بالشجاعة بحكم حروبهم المستمرة وبالأنفة وإباء الضيم والهوان وكان يشيع بينهم شرب الخمر والقمار واستباحة النساء .

ونقل الإسلام العرب في جزيرتهم من حياة التجمع في عشائر متفرقة متنابهة إلى حياة أمة يتضامن أفرادها في شريعتها وأوامرها ونواهيها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾^(١) ، وكان الرسول والخلفاء من بعده يتشاورون مع الصحابة في الأمور المتصلة بمصلحة الأمة ، وجعل الله للشورى في الأمة

(١) سورة الشورى الآية ٣٨ .

ووجوبها سورة في القرآن حث فيها على الأخذ بالشورى بين الصحابة، وكان ينبغي أن ينميتها المسلمون على مر العصور حتى لا نحتاج إلى تطبيق نظام غربي لها في عصرنا الحديث.

وكما شدد القرآن في الأخذ بالشورى في مصالح الأمة شدد في الأخذ بالإجماع في الرأي بحيث إذا اتفقت الأمة على رأي أخذت به، وأحاديث كثيرة تؤيد عصمة الأمة إذا أجمعت على رأي، من قول الرسول - ﷺ - يد الله مع الجماعة ولا تجتمع أمتي على ضلالة. وإجماع المسلمين يكون في أمور كثيرة ترتبط بحفظ الدين والنفس والعقل والذرية والمال. وحفظ الدين هو المحافظة على الشريعة وفروضها، وحفظ النفس هو المحافظة على كرامة الإنسان وحرية في الفعل والقول، وحفظ العقل هو المحافظة عليه من كل ما يضره مثل الخمر والقمار، وحفظ النسل هو المحافظة على إطعامه وتربيته تربية سليمة، وحفظ المال هو المحافظة على حسن التصرف في إنفاقه. وبهذين الركنين في حياة الأمم المتحضرة: ركن شورى الأمة وركن إجماع أفرادها دخل العرب في عصر متحضر جديد، وستضم إليهما أركان حضارية كثيرة.



في حياة الأسرة وأركانها الحضارية

أدخل الإسلام في حياة الأسرة المسلمة أركاناً حضارية متعددة، وأول ركن حضارى طلبه من المسلم - كما في سورة الإسراء - الإحسان إلى الوالدين يقول الله:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ
أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِى صَغِيرًا ﴾^(١)

والله فى الآيتين يأمرنا ألا نعبد سواه وأن نبر الوالدين فلا نقول لأحدهما أو كليهما أف ضجرا ولا ننهرهما بل نقول لهما قولا جميلا ونتذلل لهما رحمة بهما وندعو الله أن يشملهما برحمته كما شملهما برحمته فى تربيته ، والله يقرن الإحسان إلى الوالدين بعبادته حتى يرعاهما الأبناء ويوفوهما حقوقهما ، وأوصى الله والرسول الأبناء بأمھاتهم اللائى حملنهم وهنا على وهن ، وأرضعنهم حتى انفصلوا منهن ويقول الرسول " إن الجنة تحت أقدام الأمھات " ، وهو ركن حضارى عظيم فى الإسلام ، ويجيز الله فى أوائل سورة النساء للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع لضرورات قد تحدث ثم يقول : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾^(٢) تكتفون بها ويتلطف الله فيجعل العلاقة بين الزوجين (الأب والأم) - كما فى سورة الروم - ألفة وأنساً بعد أن كان بينهما وحشة قبل الزواج ، وبمجرد حدوثه يصبحان متوادين متراحمين .

وتتوالى التعاليم فى سورة النساء ، ويودع الله فيها وثيقة الميراث وما لأفراد الأسرة فيها من فروض وحقوق فى إرث المتوفى ، وكانوا يعدون زوجة المتوفى مثل متاعه تورث ، وإن شاء أحدهم تزوجها ، وإن تزوجها أحد من أسرته تزوجها دون صداق أو زوجها وارثها وأخذ الصداق لنفسه ، فحرم الله أن

(١) سورة الإسراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٣ .

تورث تحريماً باتا حفظاً لكرامتها، ويأمر الأزواج أن يرفقوا بزوجاتهم، يقول: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾^(١) أى لا تضروهن فى العشرة لغرض من الأغراض، كان يتنازلن لهم عن بعض صداقهن أو بعض أموالهن، ويقول عقب هذا الأمر: ﴿وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ معاشرة رفيقة، ويتلطف إلى الأزواج الكارهين لزوجاتهم والمصممين على فراقهن قائلاً ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تفارقوهن ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أى فاصبروا على معاشرتهم فلعل فيما تكرهونه خيراً كثيراً، وإذا فارقتموهن وآتيتم إحداهن قنطاراً من المال صداقاً لها فلا تأخذوا منه شيئاً بل تنازلوا عنه، ويقول الله كيف تأخذونه وكنتم تخلون بهن، وكان بينكم وبينهن عقد وثيق. ويحرم زواج الابن بامرأة أبيه بعد وفاته، ثم يودع السورة وثيقة كبيرة بمن يحرم على الرجل الزواج بهن من قريباته ومن المرضعات لهم وبناتهن وأمهات زوجاتهم وزوجات أبنائهم وأخوات زوجاتهم، ثم يقول: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾^(٢) أى كراهتهن للأزواج وعصيانهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بكلام يلين قلوبهن النافرة ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا﴾ وعاشروهن بالمعروف، ويقول الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أى إن تفاقم النفور بين الزوجين ﴿فَابْعَثُوا﴾ إليهما ﴿حَكَمًا﴾ رشيداً من أهله ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾^(٣) ليصلحا الأمر بينهما وعودة العلاقة الطيبة.

ويعرض الله فى سورة البقرة الطلاق بالآيات من ٢٢٦ إلى ٢٤٢ ويستهلها بمن يحلفون على زوجاتهم ألا يقربوهن، ويأمرهن أن ينتظرن أربعة أشهر، فإن

(١) سورة النساء الآية ١٩.

(٢) سورة النساء الآية ٣٤.

(٣) سورة النساء الآية ٣٥.

رجع الأزواج فيهن فيها وعليهم كفارة اليمين ، وإلا وجب الطلاق حتى لا يتمادى الرجل فى تعذيب زوجته ، وتتعاقب أحكام الطلاق وعدة المرأة بعد الطلاق وبعد وفاة زوجها وما يجب لها من الإنفاق عليها فى مدة العدة . ويفرد الله للطلاق سورة يذكر فيها عدتها وقضاء مدتها بمنزلها والإمساك بها أو طلاقها بمعروف وإشهاد عدلين على الطلاق وحكم اليائسات من الحمل اللائى لم يبلغن سنه والعدة لهن وللحاملات والإنفاق فيها عليهن والمسكن وما يجب على الزوج من أجر الرضاعة .

وبذلك يكون الله قد أحاط حياة الأسرة بسياج حضارى فى رعاية الأبوين وما ينبغى أن يكون بين الزوج والزوجة من الأُنس والمودة ، وتؤكد آيات الميراث ما بين الأهل من فروض بر ، ويطلب الله من الأزواج لزوجاتهم الرفق وحسن المعاشرة حتى لو حدثت بينهما كراهية فواجب أن يتحملاها ، وإذا خفتم الشقاق والنفور بينهما فابعثوا لهما حكيمين رشيدين من أهله وأهلها ، ويعلن الرسول فى حديث أن " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " رواه أبو داود فى السنن ، وعنى الله بإيراد أحكامه حفظا وصيانة لكرامة المرأة .

ويقول الله : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا ﴾ (١)

وبذلك يسوى بين الرجل والمرأة فيما اكتسباه لأنفسهما من المال ، ويتبع هذه المساواة أن تستقل المرأة عن زوجها اقتصاديا ، فتكون لها ثروتها الخاصة ، ولها أن تشتري وتبيع وتهب وتتجر وأن ترفع إلى القضاء خصوماتها دون أخذ الإذن فى كل ذلك من زوجها ، ولهذه الحقوق المكفولة للمرأة فى الإسلام كانت لا تفقد اسم أبيها وأسرتها فى الزواج ولا يضاف اسم زوجها إليها مثل الغرب .

(١) سورة النساء الآية ٣٢ .

ويوصى الله - فى أوائل سورة النساء - كفلاء اليتامى فى الأسرة بأن يستثمروا أموالهم ويدفعوها لهم إذا بلغوا سن الرشد، ولا يأكلوا شيئاً منها ظلماً فإن آكل مال اليتيم إنما يأكل فى بطنه ناراً ويعذبه الله أشد العذاب. ويدعو الله فى القرآن مراراً إلى إكرام اليتيم وحسن معاملته وبره لانكسار خاطره لوفاة أبيه . وكما يوصى الله باليتيم يوصى بالأرحام قائلاً: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(١) والأرحام جمع رحم وهو مستقر الولد فى بطن أمه ، وسميت به القرابة فى مثل قولهم: وصلتك رحم أى قرابة، وقول الله ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى أن الله أوجبها على المسلم فى كتابه حتى يصل أقاربه وذوى رحمه .



من واجبات الإسلام الحضارية

الإخاء الصادق بين المسلمين كما قال جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٢) فمن واجب المسلم أن يستشعره وأن يعرف أن بينه وبين غيره من المسلمين واجبات وحقوقاً ملزمة مثل حقوق الإخاء الحقيقي بين الأشقاء، إذ يربط بينهما نسب الإسلام كالنسب فى الأبوة، ويقول الرسول: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً (رواه مسلم) فالأمة الإسلامية جميعها بنيان واحد مترابط يشده هذا الإخاء الوثيق فلا يتداعى ولا يسقط منه شيء، ويضرب الرسول ﷺ - مثلاً لما ينبغى أن يكون عليه الإخاء من التعاون والتآزر بين أفراد الأمة قائلاً:

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٠.

”مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (رواه البخارى).“

وصور الرسول حقوق المسلم على أخيه المسلم قائلًا: حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعبادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس يقول: يرحمك الله (رواه البخارى ومسلم) ، وفى رد السلام يقول الله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(١) وهى تحية حضارية مثل بقية الحقوق المذكورة وفى عبادة المريض يقول الرسول: (إن المسلم إذا عاد أخاه أى فى المرض) لم يزل فى جنّ الجنّة أى فى ثوابها (رواه مسلم) ، وكان يدعو الصحابة إلى السير فى الجنائز مؤازرة لأهل الميت ، كما كان يدعو إلى إجابة الداعى مهما كان الداعى فقيراً ، وكان يوصى المسلم أن يلقى أخاه بوجهه طلق وبالبر، ويقول: الكلمة الطيبة صدقة (رواه البخارى) ، وكان لا يزال يوثق الصلات الاجتماعية بين المسلمين، ومن قوله فى ذلك: ”من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة (غمًا) فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة“ (رواه مسلم) ، وهى مكافئات كبرى تدفع كل مسلم لأداء ما ينبغى عليه لأخيه المسلم من تآزر وتعاون حميد .

المساواة

هى المساواة التامة بين المسلمين فى أقطار العالم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، والمسلمون جميعاً متساوون أمام الله، لا يتوسط بينه وبينهم كهنوت من قساوسة ورجال وأساقفة، وهم متساوون فى مجتمعاتهم دون أى

(١) سورة النساء، الآية ٨٦.

تمايز أو طبقات مثل الهند ومثل ما كان في إيران قبل الإسلام، فلا حر وعبد ولا سيد ومسود ولا عصبية ولا قومية ولا جنسية ولا طبقية، إنما هي هوية واحدة، هي هوية الإسلام التي تشمل جميع الأجناس والألوان والقوميات، ويقول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١) لا لتتافروا وتتفاخروا بالآباء والأنساب ويقول الرسول في خطبته بحجة الوداع: "أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا فضل لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى"، وبذلك ألغى الإسلام - لأول مرة - في التاريخ الجنسية والعنصرية والقومية واللون والعصبية.

وكان الرسول يستشعر هذه المساواة بينه وبين المسلمين إلى أقصى حد، فلا شعور بأى هالة قدسية من نبوة ورسالة، ولا شعور بسلطة زمنية من سلطان أو ملك، وكان ينهى الصحابة عن المبالغة في الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى وقولهم إنه ابن الله، وكان يقول إنما أنا بشر وعبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد. ولاحظ يوما أن شخصا وقف بين يديه فأخذته رعدة شديدة، فبادره قائلا: هون عليك فإنني لست بملك ولا جبار إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد وهو ما قطع من اللحم ومُلحٌ وجُفف في الشمس. وحمل الحجارة في بناء مسجده حتى لا يتميز عن العمال، وبالمثل شارك في حفر الخندق مع العمال بغزوة الأحزاب، وكان يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ويعود مرضاهم. واقتدى به المسلمون في استشعار المساواة واتخذوها مبدأ جماعيا ملزما

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

لهم فى كل مجتمع لهم شرقا وغربا، فلا جنسية ولا عنصرية ولا عصبية، بل دائما استشعار لمساواة تامة كاملة.

الزكاة

واجب مهم فى شريعة الأمة الإسلامية هو الزكاة، وقد جعلها الإسلام فرضا ملزما على كل مسلم بالغ أن يؤدى لفقراء الأمة من ماله سنويا حقا واجب الأداء، وقد وضع له الإسلام نظاما ثابتا خالدا، هو العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع دون مئونة ونفقة، ونصف العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع بالآلات، وربيع العشر فى رءوس الأموال وعروض التجارة. والإسلام بذلك يربط بين أفراد الأمة الإسلامية بعدالة اجتماعية لم يفرضها أى دين على أتباعه، فالمسلم لا يسعى فى الدنيا لنفسه وأسرته فحسب، بل يسعى فيها أيضا لأداء الفرض المالى الذى فرضه الله للفقير والفقراء فى أمته، وجعله الله فرضا دينيا، يجزى عليه المسلم جزاء عظيما يوم القيامة، وجعل الله زكاة المسلم قرضا وسلفة يقدمها إلى ربه قائلا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾^(١)، والقرض: السلف، والله يجازى عليه بضعفه فى الآخرة، ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ أى يقبض بيده الزكاة، وهو شرف عظيم لمقرض المالى ﴿وَيَبْصُطُ﴾ أى يتوسع فى الجزاء لمن يقرض ماله. ولما تلا الرسول الآية على الصحابة تعرض له أبو الدحداح الأنصارى قائلا: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح فقال له: أرنى يدك، فناوله يده، فقال: إنى قد أقرضت ربي - عز وجل - حائطى أى بستانى، وكان به ستمائة نخلة، فبشره الرسول بالجنة قائلا: كم من عذق (سباطة) ضخم ودار فساح (واسعة) فى الجنة لأبى

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

الدحاح، وكان أبو بكر خليفة رسول الله مصيبا حين رأى قتال ما نعى الزكاة من العرب بعد انتقال الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى إذ رأى فى ذلك نقضا لفريضة من فرائض الإسلام، وراجعه عمر بن الخطاب فى عزمه على قتالهم قائلا كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، فرد أبو بكر عليه قائلا: أليس قال إلا بحقها، فإن الزكاة حق المال وجعلهم أبو بكر مرتدين عن الإسلام، ونشبت حروب الردة، وانتصر أبو بكر، وهى فخر عظيم له .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فيه يقول الله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(١)، والله يقول إن الأمة الإسلامية خير الأمم لما أخذت به نفسها من الأمر المستمر بالمعروف وهو العمل الطيب الحسن الذى تدعو إليه الأمة وتحث عليه، كما يحث عليه أفرادها، وهو مديح من الله للمسلمين لا يماثله مديح إذ امتثلوا الإسلام وأقاموه على خير وجوهه، واتحدوا فى إقامته كما اتحدوا فى الدفاع عنه والنهي عن المنكر، وحتى لا يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوضى وكلا إلى أولى الأمر واتخذوا له منذ خلافة عمر بن الخطاب نظاما سموه نظام الحسبة لمراقبة الأسواق والأسعار، وكان يتولاه فى كل بلد عربى فقيه صلب، وكان له فى البلاد الكبيرة مساعدون من الفقهاء، وكان الرسول يقول: لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط (رواه البخارى) وفى

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠.

رواية: ولو بكلمة طيبة، وكان يقول: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ (رواه مسلم) .

فعل الخير

يقول الله: ﴿ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴾^(١) والله يقول إن كل ما يقدمه المسلم من خير كثير أو قليل لن يضيع ثوابه، بل سيجده يوم القيامة عند الله أعظم ثوابا وأجرا، ونوّه الرسول بأن عمل المسلم لمعاش أسرته في أى زراعة أو صناعة أو تجارة يثاب عليه ثوابا كبيرا وكان الرسول يقول ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة ولا يرزؤه لا ينقص منه أحد إلا كان له صدقة (رواه مسلم) وفى رواية ثانية لمسلم: لا يغرس المسلم غرسا فلا أكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة . ويردد الرسول أن من يقطع شجرة تؤذى الطريق جزاؤه الجنة، ومثله من رفع غصن شوك عن الطريق فإن الله يشكره ويغفر له، وكان بعض الصحابة يتحرج من إعطاء الفقير أو المسكين شيئا قليلا مثل قطعة من خبز أو ثمرة من البلح أو تمرتين فنزلت آية سورة الزلزلة قائلة للمسلمين: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾^(٢) أى وزن أصغر شيء فإن لذلك أجرا عند الله، وكان يكرر للصحابة اتقوا النار ولو بشق (بنصف) ثمرة ومن خطابه لنساء المسلمين: "يا معشر نساء المؤمنين لا تحقرن جارة ما تعطيه لجارتها الفقيرة، ولو فرسين شاة أى حافرهما، فينبغى أن تجود على جارتها بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة. وقد يكون الجزاء لفعل الخير عاجلا فى الدنيا ويصور ذلك حديث الغار والصخرة الذى روى عن رسول الله إذ قال إن ثلاثة من الرجال

(١) سورة الزمل الآية ٢٠.

(٢) سورة الزلزلة الآية ٧.

ناموا ذات ليلة معا فى غار، فلما أصبحوا وجدوا صخرة انحدرت من الجبل وسدّت باب الغار، فقال بعضهم لبعض: لا ينجينا من ذلك إلا دعاء الله بصالح أعمالنا، فذكر أولهم أنه كان له أبوان كبيران، وكان يحلب لهما من أغنامه فى كل مساء لبنا، وتأخر يوما عنهما فناما، فظل بجوارهما والقدح على يده حتى هلّت تباشير الفجر، فاستيقظ أبواه وشربا اللبن، واتجه إلى ربه يقول له: إني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة قليلا. وذكر الثانى أنه كان يحب ابنة عمّ له، وأرادها على نفسها فأبى شديدا، وانتهز فرصة حاجتها للمال، فقدم لها المال على ما أراد منها، ولما هم برغبته قالت له: اتق الله، فانصرف عنها فترك المال، ودعا ربه قائلا إني صنعت ذلك ابتغاء وجهك، وسأله أن يفرج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة قليلا. وذكر الثالث أنه كان استأجر عمّالا فى أداء عمل وأدوه، وغاب منهم عامل فثمر له أجره، وظل يثمره سنوات حتى استحال إبلا وبقرا وغنما. وجاءه العامل يسأله أجره، فقال له: إني ثمرت مالك، وقدم له غنمه وبقره وإبله فاستاقها جميعا. واتجه إلى ربه داعيا إني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، وسأله أن يفرج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة نهائيا. والحديث رواه البخارى ومسلم ولم أروه بلفظه لطوله، وهو يصور انتفاع المسلم بأعماله الخيرة وأنه إذا توسل بها فى شدة إلى ربه استجاب له وفرجها عنه.

العقلانية والاجتهاد

يعرض الله فى القرآن إبداع خلقه للسماوات بكواكبها ونجومها وخلقها للأرض بجبالها وبحارها وأنهارها واختلاف الليل والنهار ظلمة وضياء وما ينزل فيها من السماء من الأمطار فيحيى به الأرض بعد جديدها وما بث فيها من الدواب وتصريفه للرياح والسحاب والفلك الحاملة للناس ومنافعهم فى التجارة،

ودائماً يعقب - جل شأنه - على ذلك وأمثاله بأن فيه آيات ودلائل بصيرة لعقل الإنسان تشهد بأن وراءها قدرة باهرة لخالق الكون، وما أودعه فيه من نظم محكمة وسنن مطردة، وتتكرر في القرآن الدعوة إلى الاحتكام إلى العقل فى تدبر ملكوت السماء والأرض وأن له خالقا يدبره ويبث فيه النظم والقوانين المحكمة، والإسلام بذلك دين عقلانى يريد لأتباعه أن يفزعوا إلى عقولهم التى مئز بها الناس من جميع الموجودات والكائنات فى الكون التى تهديهم إلى معرفة أن للكون إلهها عظيما، وينعى الله على المشركين أنهم فقدوا عقولهم وحواسهم التى تدفعهم إلى الإيمان به وبوحدانيته وقدرته العجيبة فى خلق الكون، قائلا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١) والقلوب فى الآيه العقول، وقد عطلوها فلم تعد تفهم أو تدرك شيئا، وعطلوا حواسهم فلم تعد تبصر ولا تسمع شيئا، وكأنهم عمى وصم، فهم كالأنعام من الإبل والبقر والغنم، بل هم أضل منها لغفلتهم وجهالتهم إذ حجبوا عقولهم عن التأمل فى الكون وأن له إلهها عظيما أوجده ودبره ونظمه، ومن تمام عقلانية الإسلام أن الله يأمر الرسول بدعوة الناس إليه عن طرق ثلاثة هى الحكمة أى البراهين العقلية والعظة القصصية والجدل العقلى الدقيق قائلا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) والله يأمر الرسول فى دعوته الناس أن يستخدم الحكمة أى البراهين العقلية كقوله فى البرهنة ٠٠٠ على وحدانيته بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣)

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١.

والآية تبرهن على نفي الشريك لله بأنه لو كان معه آلهة لانفرد كل إله بما خلق وتصرف فيه وحده دون شركائه من الآلهة ولتحاربوا وغلب بعضهم على بعض وفسد نظام الكون ، ويأمر الله رسوله أن يستخدم في دعوته الموعظة الحسنة التي تلين قلوبهم ، وقد كرر في القرآن ما حدث للأمم المكذبة لرسولها من الدمار والهلاك ، وعظا للكفار وأهل الكتاب ، ويطلب إلى الرسول أن يجادل قومه بالكلام الطيب الذي يقنعهم ويدفعهم إلى الإيمان بالله واعتناق دينه الحنيف .

وهذه العقلانية في أحكام الدين يسندها الاجتهاد ، وهو بذل المسلم وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة فيما لم يأت فيه نص من قرآن أو سنة أو إجماع قطعي مثل الصلوات الخمس ، ويدل على مشروعيتها في الإسلام حديث معاذ بن جبل حين بعثه الرسول إلى اليمن ، فقد سأله بم تقضى بين الناس؟ فأجابه بكتاب الله ، فقال فإن لم تجد ، قال أقضى بما قضى به رسول الله قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيي أى لا أقصر قال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسوله (رواه الآمدى فى كتابه الإحكام) . وأخذ الصحابة يجتهدون فيما يعرض عليهم من أحكام الشريعة وليس فيه نص من كتاب أى قرآن أو سنة أو إجماع للصحابة ، واشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان أكثرهم اجتهادا فى أحكام الدين أثناء خلافته ، فقد كان الرسول يعطى الزكاة للمؤلفة قلوبهم من أشرف العرب فمنع عمر ذلك قائلا إن الله أعز الإسلام وأغنى عنهم ، ومنع زواج المتعة مدة محدودة لما قد يجر من المفسد ، وأحدث صلاة التراويح فى شهر رمضان ، وأبطل قطع يد السارق فى عام كان به مجاعة ، إلى غير ذلك من اجتهاداته . وتوزع الصحابة بعد الفتوح فى الأوطان الإسلامية وظهر بينهم مجتهدون متعددون ، وخلفهم فى العصور التالية مجتهدون كثيرون فى كل

قطر، ولم يكن أحد منهم فى أى بلد إسلامى يتعصب لرأيه وكأنهم كانوا يعتدون جميعا بقول رسول الله: اختلاف أمتى رحمة، وبذلك حفظت الشريعة، يقول الشهرستاني فى كتابه " الليل والنحل": " نعلم قطعاً وبقينا أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك، والنصوص (أى القرآن والحديث) إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وكان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى علم قطعاً أن الاجتهاد واجب الاعتبار حتى يكون بصد كل حادثة اجتهاد، وشاع الاجتهاد وعمل به فقهاء الأمة حتى تكونت عند أهل السنة المذاهب الأربعة فى القرنين الثانى والثالث: مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل: وشاع فى كل مذهب أئمة مجتهدون، حتى عصر السيوطى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى. ويقول الله فى سورة الحج: ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ ﴾^(١) لا تطيقونه، وهى وقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾^(٢) يفتحان أبواب الاجتهاد فى الشريعة على مصاريعها تيسيراً إلهياً رائعاً. واتفق فقهاء الأمة على جعله الأصل الرابع فى أصول الشريعة الإسلامية فيما لم يرد فيه نص فى القرآن والسنة وما لم يرد فيه إجماع بين المسلمين.

العدل

يأمر الله رسوله والمسلمين بالعدل الذى جعله قانوناً وجوهراً ثابتاً فى خلقه وفى الحياة، فإنه وفى كل الكائنات عدالة تامة فى الخلق وإحكام قيامها فى وظيفتها، ويكفى أن ننظر فى الكف الموصول بأيدينا فإنه لم يخلقه دون أصابع

(١) سورة الحج الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.

مثل حَفَّ البعير، ولا جعل الأصابع ذات قدر واحد، بل جعلها متفاوتة فى القدر حتى ينتفع بها الإنسان فى الإمساك بالأشياء والقبض عليها، مما يدل على أن صورة الكف فى الخلق مقدره لها تقديرا دقيقا قدرتها لها إرادة الله وحكمته فى الخلق فكل شىء فى الكون قَدَّرت له هيأته تقديرا محكما.

والله يأمر المسلم أن يكون عادلا من جميع الوجوه، فى ذاته فلا يعرضها للهلاك ولا لى شىء يضرها، وفى عبادة ربه فلا يقصر فيها ولا يجعلها كل حياته ليل نهار فإن ذلك لا يرضى ربه، إنما يرضيه التوسط فى عبادته ورفق المسلم فيها بنفسه فإن لنفسه عليه حقا، وحققها ألا يقسو عليها ويكلفها فى عبادة الله عناءً أو مشقة وينبغى أن يكون عادلا فى معاشره زوجته، فيؤدى لها حقوقها، وفى معاشره أبنائه فلا يميز منهم ابنا على إخوته فى مال يعطيه له أو فى معامله، وفى معاشره أقاربه فيكون بارا بهم جميعا، بل ينبغى أن يكون عادلا فى التعامل مع الناس جميعا حتى مع الأعداء كما يقول الله فى سورة المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِيَا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(١) والشنآن: شدة البغض ومعه فى الأمة الإسلامية وفى الأمم الأجنبية يأمرنا الله بالعدل فى المعاملة والإنصاف فى جميع أمورنا ومعاملاتنا لا فى البيع والشراء فقط بل فى كل العلاقات القضائية بين الأفراد وبين الفرد وحكومته وبين الدول ذات السيادة، وهو باختصار إعطاء كل صاحب حق حقه.

وهو الأساس الواجب الانصياع له فى القضاء والمصالحات بإيصال الحق إلى أصحابه، وفيه يقول الله فى سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْدِلُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٢) الذى لا تصلح حياة الأمم والأفراد بدونها إذ يصبح كل

(١) سورة المائدة الآية ٨.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨.

من له حق آمننا على حقه طالما كان حاكم الأمة عادلا، أما إن كان ظالما فإن حياة الأمة تصبح فوضى، وتغيب عن الناس الثقة فى الحاكم الباغى الذى يقوم حكمه على البطش والقهر للناس، ويروى أن إمبراطور بيزنطة أرسل مع شخص هدية إلى عمر بن الخطاب، وهو خليفة، فلما دخل المدينة وسأل عن داره دلّوه عليها، وعجب إذ وجدها ذارا صغيرة عليها باب قديم، وكان يظنها قصرا، ولم يجده، وقيل له إنه خرج إلى السوق، ومضى يبحث عنه، فوجده نائما فى ظل حائط، ولا حرس، فقال لمن حوله مشيرا إليه: " عدلت فأمنت، فتمت حيث شئت، وحكامنا ظلموا، فاحتاجوا إلى الحراس يحرسونهم ويحمونهم، وبدون ريب إشاعة الحاكم العدل فى الأمة يشيع فيها الأمن والطمأنينة وينعصمها من الخوف والثورة عليه، ونوّه الرسول بالحاكم العادل مرارا وتكرارا، وقال إنه واحد من سبعة يظلمهم الله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله".

الصدقة

هى ما يخرجها المسلم من ماله أو زرعه ابتغاء مرضاة ربه، مما سوى الزكاة إما فى سبيل الله لحرب أعداء الأمة وجهادهم، وإما للمحتاجين من أفراد الشعب، ويأمر الله المتصدقين من المسلمين أن يكون ما يتصدقون به من خيار زروعهم وثمارها وخيار أموالهم المتجرين بها قائلا ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۗ﴾^(١) ويحذر المتصدق أن يتصدق بشيء من خبيث ماله أو ردىء زروعه قائلا: ﴿وَلَا تَقَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾، وإذا كانت الصدقة طعاما وجب أن تكون من نفس طعام أسرته.

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٧.

وكان الرسول يحث عليها الصحابة ويقول إنها وقاية من النار مهما كانت قليلة، حتى لو كانت بنصف ثمرة، وقالت له السيدة عائشة يوما جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين، فأعطيتهما ثلاث تمرات، فأعطت كل بنت ثمرة، ورفعت ثمرة لتأكلها فلاحظت أن ابنتيها استطعما تمرتيهما، فشقت التمرة التي تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها فقال لها إن الله قد أوجب لها بالتمرّة التي شقتها الجنة وأعتقها بها من النار، وسأله رجل أى الصدقة أعظم أجرا؟ فقال أن تصدق بها وأنت سليم شحيح بالمال تخشى الفقر لقلّة مالك، ومع ذلك تؤثر به الفقير. ويقول الله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَيَعِيًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(١) وكان المتصدق يخشى إن هو أظهر صدقته وأعلن عنها أن يكون ذلك رياء فأجازته الآية وطمأنته، وفضلت على الصدقة العلنة صدقة السر حفاظا على شعور الفقير ويقول الرسول إن المتصدق سرا حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه أحد السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله.

ويذكر الله من تصرف لهم الصدقات قائلا: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾^(٢)، وهم ثمانية.

والفقير من لا يملك شيئا والمسكين شديد الفقر حتى السؤال فيه، والعاملون عليها أى الساعون فى جمعها، وكانت الدولة تفرض لهم من مال الصدقات حظا منه، ولم يعد هذا المصرف قائما، ومثله مصرف المؤلفة قلوبهم من سادات

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٠.

قريش والعرب أشار عمر بالغائه بخلافة أبى بكر قائلاً إن الله أعز الإسلام وأغناه عن تألف هؤلاء السادة، فوافقه أبو بكر وألغاه. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أى فى تحرير رقاب العبيد، ولم يعد هذا المصرف قائماً ﴿وَالْغَنِيمِ﴾ وهم المدينون العاجزون عن أداء ما عليهم من الديون ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى فى حرب أعداء الله وما يحتاج إليه المجاهدون من الأسلحة ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المسافر المحتاج إلى المأوى والطعام.

الحرية الدينية

مما يميز الإسلام من الديانات السماوية أخذه بقانون الحرية فى الدين فلا يلزم به أحداً قهراً، بل تترك لكل إنسان حريته فيما اختار لنفسه من الدين عملاً بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) وهو بذلك يحرم على المسلمين تحريماً باتاً أن يدخلوا فى الإسلام أحداً كرهاً أو إكراهاً، وكان الرسول - ﷺ - يحرص على إسلام أهل مكة، فعاتبه الله على هذا الحرص قائلاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) فليس من حقلك إكراههم على الإسلام سواء منهم من كان نصرانياً أو يهودياً أو حتى وثنياً من أهل مكة، فدع لهم الحرية التامة فيما يعتنقون من الديانات، وتبع ذلك أن الإسلام عامل المقيمين فى دياره من غير المسلمين معاملة رفيقة، تدل على ذلك معاهدة الرسول لنصارى نجران وفيها يقول:

” لنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعتهم (كنائسهم) وكل ما تحت

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس الآية ٩٩.

أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانته ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية. ومن سأل منهم حقا فلهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين". وظلت هذه الوثيقة في عهد الرسول تحمل قواعد التعامل للمسلمين مع أهل الكتاب وغيرهم في جميع الأقطار شرقا وغربا، فمعابدهم تحترم ويؤدون فيها شعائرهم بحرية كاملة. ويؤدى غير المسلمين في الأمة القادرون على حمل السلاح ضريبة دفاع سميت جزية وكانت لا تزيد سنويا عن دينار، ولم تكن تؤديها امرأة ولا صبي ولا شيخ ولا راهب، وطلب الله من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب وغيرهم معاملة كريمة.

وطلب الرسول من المسلمين ألا يتصدقوا على فقراء قريش الوثنيين أملا أن تضطرهم حاجتهم إلى الدخول في الإسلام فنزلت عليه آية كريمة تنهاه عن ذلك، هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ﴾^(١) فواجب الرسول تبليغ الدعوة إلى الإسلام فحسب، أما إسلامهم فمفوض إلى الله وإلى حريتهم واختيارهم لأنفسهم، وأى شيء تنفقونه على المشركين يعود إليكم جزاؤه، والله يعلم أنكم لا تنفقون شيئا إلا لوجه الله وما تنفقوا من شيء إلا ويعود إليكم أجره. وكل ذلك وما سبق من الحرية الدينية تعاليم إسلامية حضارية عظيمة.

الرحمة بالإنسان والحيوان

يقول الله في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٢) فهو دائم الرحمة لعباده لا يشق عليهم في عبادة ولا في عمل يؤدونه ودائما يحببهم

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤.

فى الرحمة والرأفة والرفق وأن يشيع ذلك بينهم كما تشيع المودة والأخوة، ويعلن مرارا أن أبواب رحمته مفتوحة للمسلمين بل أيضا للعاصين المذنبين مهما تكن معصيته ومهما يكن ذنبهم كما جاء فى سورة الزمر إذ يقول جل وعز:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ [فى المعاصى والذنوب] لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) والله يطلب بلطفه من الناس جميعا مسلمين وكافرين ألا يياسوا من رحمته وغفرانه .

ويقول الله فى سورة يونس: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فى القرآن تحمل نصحا وإرشادا ﴿ وَشِفَاءً لِّمَا فِى الصُّدُورِ ﴾ من الشرك والضلال ﴿ وَهَدًى ﴾ إلى الطريق الحق ﴿ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) . غامرة لهم، وكان القرآن دواء ربانى يقضى قضاء مبرما على الشرك والضلال مما يجعله بحق رحمة للناس . ويقول الرسول: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض بين الجن والإنس والبهائم والهوام من الطير والحشرات، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها . وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة .

ودعت الشريعة الإسلامية إلى الرحمة بالحيوان فلا يشق عليه الناس فيما يعمل وفيما يحمل . وكان الرسول يتشدد فى الرحمة بالحيوان المستأنس، وينهى أن يناله أى أذى وكان يقول: " عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض أى من هوائها وحشراتهما (رواه مسلم) . وعنه أنه قال: بينما رجل يمشى فى طريق واشتد عليه العطش، فوجد بثرا فنزل فيها وشرب ثم

(١) سورة الزمر الآية ٥٣ .

(٢) سورة يونس الآية ٥٧ .

خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فقال هذا الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى، فعاد إلى البئر، فملاً خفه (حذاءه) ماء، ثم أمسكه بفيه حتى صعد، فسقى الكلب.

فشكر الله له فغفر له وأدخله الجنة (رواه البخارى). وعن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله فى سفر، فانطلق لحاجة فرأينا قُبيرةً ومعها فرخان فى أحد الأعشاش، فأخذنا فرخيها، فجاءت فلم تجدهما فجعلت تعرش أى ترتفع وتدنو باحثة عن فرخيها، فقال الرسول: من فجعها فى فرخيها ردهما إليها، فرددناهما (رواه أبو داود) وبحق سُمى الإسلام دين الرحمة.



أخلاقية حضارية

يدعو الله المسلم إلى التمسك بالتربية الأخلاقية الحضارية السديدة التى أودعها له فى القرآن وحثه على استشعارها.

العزة: من ذلك شعور المسلم بالعزة التى منحها الله له قائلاً: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) أى جعلهم يعتزون بدينهم وانتصاراته على المشركين كما جعلهم يشعرون بالقوة والمنعة والكرامة والاعتداد بالنفس).

الوفاء بالعقود

يقول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٢) والعقود تشمل العقود التى يعقدها المسلمون بعضهم على بعض كعقود المعاملات فى البيع

(١) سورة المنافقون الآية ٨.

(٢) سورة المائدة: الآية الأولى

والشراء وعقود الإيجار للمنازل والمزارع وعقود الزواج ، وواجب المسلم إذا تعهد بعهد أن يفي به ، ومن ذلك العهد فى العلاقات كعلاقة الزوج بزوجته . وعلاقة الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء والأخوة بالأخوات .

الأمانة

فى سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(١) فمن أوّتمن على أمانة ينبغى أن يردها إلى صاحبها فى موعدها المحدد وألاً يؤخرها عنه ، أما إن جردها وقال ليس لك عندى مال كان ذلك خيانة ، وخيانتها من أكبر الذنوب والآثام . ووصف المسلم بالأمانة من أهم أوصافه ، إذ المسلم الحق لا يأكل أمانة لأحد وإن يأكلها تقطع أمعاء آكلها فى الدنيا ويصلاها ناراً حامية فى الآخرة .

الحق

سمى الله نفسه فى سورة الأنعام باسم الحق^(٢) أعلاه بين المسلمين لكى يعتنقوه فى معاملاتهم فى حقوق أفراد الأسرة وفى حقوق الأفراد عامة ، وتسمى عبادات الله حقوقاً له من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وبالمثل تسمى عقيدة الإسلام حقوقاً له من الإيمان به بالحساب والجزاء فى اليوم الآخر والإيمان بالملائكة والرسول والكتب السماوية ، وينوه الرسول بكلمة الحق يقذف بها مسلم فى وجه سلطان ظالم لا يخاف منه ولا من ظلمه وبطشه .

الصدق

حث الله عليه فى القرآن مراراً منوهاً به ، وهو يشمل الصدق مع الله فى الوفاء له بالإيمان المخلص بذاته وبالملائكة والرسول والكتب السماوية واليوم الآخر مع أداء الفروض من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، والصدق مع الزوجة

(١) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٢ .

والأبناء فى أداء مطالبهم، والصدق مع غيرهم فى جميع الالتزامات والعقود
والمعاملات، ويقول الرسول: إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى
الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

النصيحة

قال رسول الله - ﷺ - : الدين النصيحة، فقال له الصحابة: لمن؟ قال لله
ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم (رواه مسلم) والنصيحة لله وصفه
بما يستحق وتعظيمه، وطاعته وعمل ما يحبه ويرضيه وموالاته من أطاعه ومعاداة
من عساه. والنصيحة لكتابه إحسان تلاوته وفهم معانيه والإخلاص لأوامره
ونواهيه. والنصيحة لرسوله اتباع شريعته وسنته وتعاليمه والتخلق بأخلاقه.
والنصيحة لأئمة المسلمين عونهم على ما ينهضون به من مصالح الأمة.
والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة على ضعفائهم من الشيوخ واليتامى والنساء،
والرحمة بفقرائهم ومد يد البر لهم والمساعدة.

الحلم

هو عفو وصفح عن عدوان السفهاء، ولا يغضب الحليم إذا تناوله شخص
بقدر أو ذم واشتهر كثيرون من المسلمين بالحلم والأناة وضبط النفس فى
مقدمتهم الرسول، وكان ربما سمع كلمة نابية من أعرابى فابتسم ولم يرد عليها
بل حاول أن يسترضيه إذا قالها فى قسمة غنيمة، ومن حلماء المسلمين الأحنف
ابن قيس مستوطن البصرة قال له شخص إن قلت فى كلمة لتسمعنَّ عشرة، فقال
له الأحنف: لكنك لو قلت فى عشر كلمات لم تسمع منى واحدة.

التوسط

يمدح الله من يتوسطون فى الإنفاق بين الإسراف والشح الشديد قائلاً:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾^(١) والإسراف: تجاوز القدر الكافى

(١) سورة الفرقان الآية ٦٧.

فى الإنفاق، فلا يسرف فى الإنفاق إسرافا يؤدى إلى ضياع ماله فىحاول الحصول عليه بطرق سيئة، وهو مذموم فى نفسه وفيما يؤدى إليه، والإقتار الشح الشديد على الزوجة والأولاد فى الإنفاق عليهم، وضرره لا يتوقف عند حد فقد يفسد الزوجة والأبناء، وواجب الآباء التوسط فى الإنفاق بين الإسراف والبخل الشديد وكنز المال.

العمل الصالح

يقول الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

والعمل الصالح هو العمل الطيب مما دعا إليه القرآن الكريم مما يتصل بعبادة الله وبحسن الخلق وبر الجماعة. والعمل الصالح فى العبادة هو أداء المؤمن للفرائض أداء صحيحا دقيقا، أما العمل الصالح المتصل بحسن الخلق فمثل الشجاعة والكرم والحلم والوفاء بالعهد والمواساة، والصدق والنصح والعفاف. وأما العمل الصالح المتصل بالجماعة فمنه البر بالفقراء والمساكين واليتامى وكل معروف حتى الكلمة الطيبة يقولها لأخيه والسلام ورده وحتى الوجه البشوش المستبشر فى اللقاء.

(١) سورة النحل الآية ٩٧.